

نظرة عامة

الارومة الأتيكية

ينبغي - قبل دراسة هذا العصر الساطع - أن نتقدم بالإلمامة عاجلة عن هذه العاصمة فنشير في إيجاز إلى العنصر الذي كان يقطنها ، ثم نلقى نظرة سريعة على تاريخها السياسي ، وأخيراً نختم هذه الإلمامة بلحمة عن اللهجة التي كتبت بها منتجاتها ، والتي ألعنا إليها في الجزء الأول ضمن لهجات اللغة الهيلىنية .

تقع شبه الجزيرة الأتيكية التي حاضرتها أثينا في الجنوب الشرقى من إغريقيا القارية ، ويصلها بيبيلو بونيسيا برزخ كورنتا ، وقد تكون الشعب الذى يقطنها من عدة عناصر اختلطت بمرور الزمن شيئاً فشيئاً ، ولم تقاجاً بحوادث مباغنة كحوادث الغزو التي تفاجى بعض الأصقاع ، فتقلب فيها الحياة الهادئة رأساً على عقب ، أوتمزج عناصرها الأصلية بعنصر أجنبى قد لا يكون ملتماً معها ، فتنشأ من ذلك ظاهرات تاريخية لها خطورتها .

كانت أتيكا أول أمرها - فيما يعرف التاريخ - مأهولة ببطون من قبيلة الپيلاج البدائية ، ثم انحدرت إليها على التوالي طوائف أجنبية متباينة الأجناس ، بعضها من آسيا كالفينيقيين والكاريين والمينيين ، والبعض الآخر من الشمال كالئينيان أو من جهات أخرى في إغريقيا كالپيلوسيين والأكيان الذين طردهم الدريان ففروا إلى أتيكا واستوطنوها استيطان اللاجئين المستغيثين ، لا استيطان الغزاة الفاتحين ، ولكن العنصر الذى ساد هذه العناصر كلها هو العنصر الينيانى ، ولا يعرف التاريخ الصحيح متى نزحت هذه الشعبة الهيلىنية القوية إلى أتيكا ، وإنما كل ما يعرفه هو أن ذلك كان قبل القرن الثانى عشر . ومعنى هذا كله أن الشعب الأتيكى هو مزيج من أجناس مختلفة تلاشى بعضها في بعض بهيئة

طبيعية هادئة، وكانت الغلبة في هذا المزيج للينيانين ، وهذا هو السر في إطلاق ذوى النظرة العجلى لفظة يونانى على جميع المنتجات الهيلينية .

لم يكن يُنيانيو أتيكا يشبهون يُنياني آسيا الصغرى بسبب هذا الاختلاط من ناحية، وبسبب طبيعة مناخ شبه الجزيرة الأتيكية من ناحية أخرى . فلما كانت تلك البقعة الأخيرة قليلة الحصوبة لم يكن سكانها مترفين كسكان يُنيا الآسيوية ، وإنما كانوا رجال قناعة وعمل ، وقد امتازوا ببساطة تامة في جميع فروع حياتهم احتفظت لهم بطهر قلوبهم ، وبراءة أخيلتهم ، وهما - كما يقول أحد المؤرخين - الكنزات النفيسان اللذان كانا ينتظران « سوفُكلِيس » و « أفلاطون » ليرزا قيمتهما إلى عالم النور .

لمحة عن تاريخ أثينا

الأقاصيص الأسطورية عن هذا التاريخ

لا يكاد أحد يعرف من تاريخ أثينا قبل عهد سولون إلا ماورد عن طريق الأقاصيص الأسطورية ، أما بعد ذلك العهد ، فإن التاريخ الصحيح قد سجل كل الحوادث والظروف ذوات الشأن ، ومجمل هذه الأقاصيص أنه لم يكن في أثينا عنصر فاز بالغلبة والسيادة الكاملتين واستعبد العناصر الأخرى لخدمته على نحو ما حدث في اسبرَتا ، وإنما كانت مأهولة بطوائف من الأسر الأرستُكراتية التى كانت تتصادم فيما بينها عند ما تتعارض مصالحها ثم تعود إلى السلام والوثام جيئما تفاهم على تسويتها .

أعدت أثينا نفسها بالتربية الأرستُكراتية لذلك المستقبل الرائع الذى واجهته إبان نضوجها ، ولتلك الحرية التى تفانت فيها أثناء نهضتها الاجتماعية الساطعة ، إذ أنها - فى عهد يفوعها - قد تعلمت من تلك التربية كيف تحترم النظام وتطيع القانون ، وبالتالى كيف تستطيع أن تنشئ ديمُكراتية صالحة نافعة ، لا ديمُكراتية فوضوية متصلة متهلكة متشردة .

ولقد كان من آثار هذه التربية النبيلة أيضاً أن احتفظت أئينا طيلة حياتها الزاهرة بقواعد خلقية سامية ، ومبادئ عقلية عالية ظلت ترشدها وتقتادها إلى خير الغايات حتى في أشد معامع الديمُكراتية جلبية وضوضاء . وفوق ذلك فإن الشعب الأثيني كان دائماً في ساعات آلامه ومحنه ملىء النفس بالأمل ، ولم يكن خائراً كـشعب اسبَرْتَا يترك قلبه طعمة لليأس ينهشه حتى يأتي على عناصر الحياة فيه . والسبب في ذلك هو أن ضرورات العيش كانت قد هذبت الأثينيين وشحذت عقولهم ، وأعدت طباعهم للأخذ والرد ، والمفاوضات والمساومات ، وأنشأت في نفوسهم ملكة الخروج من المأزق ، وفضيلة احتمال الأرزاء .

إصلاحات سولون

هذه هي الخصائص البارزة التي يتيبها الباحث عند ما يستعرض تاريخ أئينا الأسطوري منذ نشأتها إلى أوائل القرن السادس ، أما بعد هذا العهد ، فإن التاريخ الحقيقي ينتصب على قدميه ويحاول أن يؤدي رسالته كاملة فيصور لنا هذا الشعب الراقى وقد وكل إلى «سولون» أحد حكمائه في سنة ٥٩٤ إصلاح القوانين السياسية والمدنية والمبادئ الخلقية ، كقانون الديون الذي كان يبيح للدائن أن يضع يده على شخصية المدين ويسجنه متى شاء ، فجعله هذا الحكيم المشرع ينص على قصر حق الدائن على تعقب ثروة المدين لا شخصه ، فكانت أولى النتائج العملية لهذا التعديل أن أفرج عن كثيرين من المدينين الذين زج بهم دائنهم في غيابات السجون بأمر القانون القديم لعجزهم عن الدفع ، وليس هذا فحسب ، بل إنه قد خفض نسبة الفوائد لكي لا يرهق المرابون ضحاياهم الفقراء . وكذلك قسم الشعب الأثيني إلى أربع طبقات حسب نسب ممتلكاتهم ، وقصر الضرائب على الطبقات الثلاث الأولى وأعفى منها الطبقة الرابعة وهي التي لا تملك شيئاً ألبتة ، أو تملك شيئاً ضئيلاً ، ولكنه في مقابل ذلك حرّمها حق الوظائف العامة .

ومن هذا الإصلاح أيضاً أنه أسند السلطة التشريعية إلى مجلس شيوخ مكون من أربعائة عضو يعينون بالاقتراع ، ولكن الشعب ليس ملزماً بالخضوع لهذه القوانين إلا إذا

أقرتها الأمة في استفتاء عام ، فإذا حدث إقرار قانون ما ، قام على تنفيذ هذه تسعة قضاة يدعون بـ « الأرختوس » وفوق هؤلاء القضاة تقوم محكمة عليا تدعى « أريوباج » وهي مؤلفة من قضاة قدامى .

لم يحطم « سولون » أواصر الأسرة الأثينية كما فعل في إسبَرْتا مشرعها « ليكرغوس » الذى لم يكن يعنيه من الأسرة إلا أن يكون فيها رجال هم وطنيو اليوم ، وفتية سيكونون وطني الغد . أما قوانين سولون فقد أبقت الأسر في أثينا على حالتها الفطرية ، واحتفظت للرجل فيها بمواقفه كابن ثم كزوج ثم كأب ، ولم تحاول أن تسلبه شيئاً من عواطفه الطبيعية في هذه المواقف كلها .

ومن أبرز هذه القوانين التى وضعها هذا المشرع وخالف فيها إسبَرْتا قانون العمل الذى كان في هذه المدينة الأخيرة يحظر على الوطنيين الأعمال اليدوية ، فجعله سولون في أثينا يقهر الجميع على العمل ، إذ ينص على أنه يجب أن يكون لكل وطنى مهنة حتى لا يكون في المدينة عاطل ، وكذلك أصلح القوانين الخاصة بالأجانب والأرقاء ، فنص على أن للأولين حق الاستقبال الكريم في أثينا ، وللآخرين حق طلب بيعهم لغير مواليتهم إذا كان الأولون يسيئون معاملاتهم .

عهد بيسستراتوس وولديه

بيد أن هذا الحكيم الجليل لم يكد ينتهى من وضع هذه القوانين النافعة حتى تنحى عن وظائف الدولة ، ليتمكن الشعب من تطبيقها بجرية كاملة فتم له ما أراد . وفي سنة ٥٣٨ اعتلى « بيسستراتوس » دست الحكم الطفياني ، ولكنه كان طاغية معتدلاً محبوباً من الشعب كله ، لأنه لم يبلغ قوانين سولون العادلة التى أشرنا إليها ، ولم يرهق الأمة بتكاليف جديدة ، بل كان على العكس من ذلك وديعاً رحيماً عطوفاً على جميع طبقات الشعب ، صديقاً للأدباء والفنانين ، وهو الذى شيد طلائع الآثار الفخمة التى جملت أثينا ، وأنشأ أولى

المكتبات العامة في إفريقيا كلها ، وكذلك هو الذي جمع للمرة الأولى أشتات الإلياذة والأوديسا ، وكوّن منها قصيدتين متماسكتين أوجب تلاوتهما في الأعياد الكبرى للإلهة أثينية .

خلف هذا الطاغية ولداه « هيرّ كوس » و « هينياس » فسارا على نسقه وأخذوا في تشجيع الأدب والفن والحياة العقلية عامة ، فكانا حلقة متممة للسلسلة التي بدأها والدهما ، إذ نما في عهدهما الشعر ، وارتقت الموسيقى ، وسما الفن وهاجر الشعراء الموسيقيون الموهوبون إلى أثينا كـ « أنكريون » و « لاسوس » وبرز الشعر الحماسي إلى الصفوف الأمامية ، وتقدم الشعر الديني والتنسكي بهيئة تلقت الأنظار . وأهم من ذلك كله أن المآسى قد نشأت في هذا العهد الزاهر ، وأن أثينا بسبب كل هذه العوامل مجتمعة قد استطاعت أن تزعم أنها هي المدينة العقلية الأولى في العالم الهيليني كله ، وأن من العدل أن تزعمه وتستولى على صولجان الصدارة فيه وإن كانت تعلم علم اليقين أنها كانت في ذلك الحين أقل قوة واستعداداً من أسبرتا .

أسرة ألكميون^(١) وصدارة أثينا العقلية

لم يكد القرن السادس يشارف نهايته حتى كان هينياس قد طرد ، فتم بطرده سقوط أسرة بيسستراتوس وحلت محلها أسرة ألكميون النبيلة الناهضة ، وكان من أوليات النتائج العملية لهذا الانقلاب أن اعتلت أثينا عرش الحياة العقلية ، وقبضت بيد حازمة على صولجان الحكمة والفلسفة والأدب والرياضة والفلك وكل أفانين الحياة الفكرية المعروفة في ذلك العهد . وقد ظلت محتفظة بهذه العظمة التي تفردت بها زهاء قرنين منحت أثناءها العلم والحكمة كل مافي وسع العقل البشري من دقة واتزان وعناية ، وسكنت على الأدب أنواعاً من النبل ، وفنوناً من الرشاقة الخاصة التي لا تسامى ، وضروباً من الرقة مع تعمق عظيم

(١) أسرة ألكميون هي أسرة أثينية عريقة تزعم أنها منحدرة من أياس البطل الشهير الذي رأيناه في الإلياذة يساهم بقسط وافر من حرب تروادة .

يستوجب تحليل هذه المنتجات على مر الدهور وتوالى الأزمان ، ولم لا ؟ أليس في هذا العصر قد سطعت أنوار حكمة سقراط وأفلاطون وأرسطو وتلاميذهم الأجداد ؟ أليس فيه قد نزلت الفلسفة من سماء الإلهيات إلى أرض الحياة الاجتماعية ، فأخذت تحدد الخير ، وتنقب عن الفضيلة ، وتوضح الوسائل العالية الموصلة إلى النهاية القصوى المقصودة من هذه الحياة وهي الكمال الإنساني ؟ أليس فيه قد أزهرت الرياضة ، وترعرع الفلك ، ونما الطب ، ووضعت أسس المنطق العلمى المنظم ؟ أليس فيه قد أنشئت المآسى والمهازل التمثيلية البارعة : « التراجيدى والكوميدي » ؟ أليس فيه قد وجدت دور التمثيل وسارت في طريق الكمال حتى أضحت إحدى وسائل الثقافة الشعبية الهامة ؟ أليس فيه قد بلغت الفصاحة الهيلينية أقصى مراتبها ، وارتقت الخطابة حتى أضحت لا تحتمل زيادة من مستزيد ؟ أليس هو الذى أفاض على الاسكندرية من أنواره العالية ما جعلها ناصعة العلم والعرفان في الدنيا في العصر الذى تلا العصر الأثينى على ماسيجىء في موضعه ؟ أليس هو الذى سكب أشعته على بغداد في العصر العباسى فجعلها منارة الشرق والغرب ؟ أليس هذا العصر على الإجمال هو الذى ألهم كل علماء العصور الحديثة وأدبائها في أوروبا منتجاتهم التى أصبحوا بفضلها سادة الأمم وقادة الشعوب ؟

كانت إذاً ، صدارة أثينا العقلية هى الظاهرة السائدة التى تميز ذلك العصر عن غيره من عصور الهيلين : فالعقريه الهيلينية فيه - كما يلاحظ الأستاذ كروازيه - قد بلغت أقصى حدود نضوجها ، والمحامد الفطرية قد ارتقت إلى درجة السطوع ، والنشاط العقلى الذى هو من خصائصها الذاتية قد آتى ثماره المقصودة ، وهذا كله قد تركز في تلك الحاضرة الثلاثية ، ولكن ليس معنى هذا أن الإنتاج العقلى في ذلك الحين قد انطفأ من المدن الهيلينية الأخرى ، كلا ، فإنه قد نما وأينع في جميع الأصقاع الهيلينية ، وإنما معناه أن العباقرة وذوى المواهب الممتازة كانوا جميعاً يغادرون مدنها وقراهم منذ طليعة حياتهم العلمية أو الأدبية متجهين إلى كمية الثقافة الكبرى التى كانت تسطع بحكمائها التعمقين ، وعلمائها النابيين ، وكتابها الجيدين ، وشعرائها المبدعين ، وفنانيها النابيين ، وليس هذا فحسب ، بل برأيها العام المنقف

الذى قد بلغ من الأهلية والكفاية حداً يمكنه من الحكم على هذه الفروع المتشعبة من المعارف الإنسانية .

النهضتان السياسية والحربية :

بيد أن هذا السمو العقلى الذى وصلت إليه أثينا لم يشملها بحمرة الغرور ، ولم يغفلها عن تقدير قيمتها المادية على حقيقتها ، ولم يحل بينها وبين إدراك تلك الحقيقة المرة وهى أنها أضعف من أسبرتها ، فجعلت تعالج نواحى الضعف المادى فيها لتعد نفسها لمواجهة الأحداث والتغلب عليها ، فتظفر بالزعامة السياسية كما ظفرت بالصدارة الأدبية والفنية ، وقد ظلت تعمل على إنماء هذه القوة زهاء عشرين عاماً . وبعد هذا الاستعداد الطويل المتواصل اشتعلت الحرب الميدانية الأولى التى بدأت فى سنة ٤٩٢ وانهت بانتصار أثينا ، وسببها أن هذه المدينة كانت هى الوحيدة التى آوت ثوار آسيا ، وعطفت على قضيتهم ، وأيدتهم ضد الفرس ، فعز على هؤلاء الأخيرين أن توجد مدينة فى إغريقيا تجرؤ على مناصرة أحد عليهم ، فأقسموا لينتقموا من أثينا شر انتقام ، ثم أعدوا لغزوها حملة هائلة بلغ عدد جنودها مائة وعشرة آلاف ، فلما علمت أثينا بوصول هذا الجيش أعدت له جيشاً عدد رجاله أحد عشر ألفاً بقيادة قائدها العظيم « ملتياد » فسحق جيش الفرس سحقاً سجل لأثينا أسمى أنواع المجد وتدعى هذه المعركة بمعركة « ماراثون » ولقد حفظت لنا الرسوم المسجلة على الأوعية الهيلينية مناظر مؤثرة من هذه المعارك التى دارت رحاها بين الهيلين والفرس ، أو بين الهيلين والبربر على حد تعبيرهم . (انظر الصورة رقم ٢ فى الصفحة التالية) .

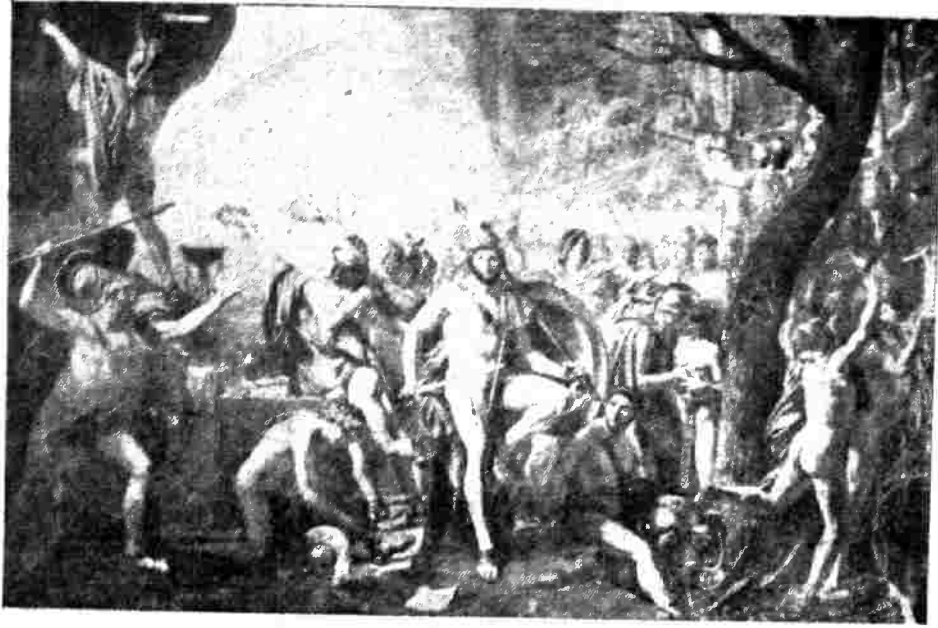
ومنذ ذلك العهد ألقى الحظ بين يدى هذه المدينة بمقاليذ الزعامة السياسية أيضاً ، فتم لها ما تصبو إليه الأمم الناهضة من تفوق أدبى ومادى ، بيد أن هذا الظفر لم يشمل رجال أثينا ولم يدخل الغرور إلى نفوسهم ، وإنما حفزهم إلى زيادة النشاط والعمل على بلوغ درجة الكمال ، فظلوا يجاهدون حتى صار لديهم أسطول بحرى كبير ، وذلك لأنهم كانوا يتوقعون ألا يخنق الفرس بعد هذه الهزيمة ، وإنما سيمودون إلى محاربتهم يوماً ما . وقد كان ذلك



[الصورة رقم ٢ للرسم القرني نوتور وهي مأخوذة من رسم على كأس من صنع الفنان الهيليني ذوريس توجد بمتحف اللوفر بباريس ، وهي تمثل مبارزة بين مقاتل هيليني ، وآخر فارسي ، ويرى الفارسي وقد هوى إلى الأرض تحت ضربات خصمه] .

بالفعل ، إذ أعلن الفرس عليهم الحرب في سنة ٤٨٠ وجهزوا لهم جيشاً سرعياً يروى المؤرخون أن عدده قد بلغ أربعة ملايين من الرجال ، لأن غايتهم في هذه المرة لم تكن الانتقام من أثينا كما كان ذلك في المرة الأولى ، وإنما كانت ابتلاع إغريقيا كلها .

ولما ترامت إلى المدن الهيلينية أنباء ضخامة عدد هذا الجيش وعدده ارتفعت وصممت على الخضوع ماعدا مدينتي أثينا واسبرطة ، فإنهما اعتزمتا المقاومة حتى النهاية ولو أدى ذلك إلى محوهما من سجل الوجود ، وقد بدأتا في تحقيق هذا التصميم عملياً ، فأما جيش اسبرطة فقد خرج للالقاء هذا الجيش بقيادة مليكه العظيم « ليونيداس » الذي كان أحد المثل العليا في التاريخ القديم كله ، وقد أشرنا إلى شجاعته في الجزء الثاني من هذا الكتاب . (انظر الصورة رقم ٣ في الصفحة المقابلة) .



[الصورة رقم ٣ مأخوذة عن لوحة في متحف اللوفر من صنع الفنان الفرنسي دافيد ، وهي تمثل ليونيداس ملك اسبرتا الشجاع العظيم في موقعة ترموبيلوس ، ويرى هذا الملك في صدر اللوحة قابضاً يمينه على سيفه ، بينما الترس يحمي يساره] .

على أن ذلك الجيش الصغير - وإن يكن مؤلفاً من فرسان أبطال ، وعلى رأسه ملك ماجد - لم يستطع أن يقهر ذلك السيل الجارف من جنود الفرس ، ولم يزد على أنه وقف زحفه قليلاً في ممر « ترموبيلوس » وإن كان يعلم تمام العلم أنه سيدفع ثمن هذا الوقف غالياً ، وهو فناؤه عن آخره .

وأما جيش أثينا فقد اعتصم بأسطوله البحري تحت قيادة « تيمستوكليس » في مضيق « سالامينا » الذي كان يتسع لسفنه الصغيرة ، ولم يكن من الممكن أن تمر فيه سفن الفرس الضخمة ، وبهذا تمكن من هزيمة أسطول الأعداء ، وشتت شملهم ، ففر كثير منهم إلى بلادهم ، واشتبكت البقية الباقية مع الجيش الهيليني بقيادة « بوسنياس » ملك اسبرتا فهزمها في « بلاتيه » في سنة ٤٧٩ . أنظر الصورة رقم ٤ في الصفحة التالية)

وأخيراً تعقب الأسطول الأثيني بقيادة « إكسثيبيوس » قلوب الفرس فدحرها في « ميكالا » . وعلى أثر هذا طرد الفرس نهائياً من إغريقيا . وعندما وصلت الحرب إلى هذا

(م ٢ - الأدب الهيليني - ثالث)



[الصورة رقم ٤ للفنان الفرنسي نوتور ، وهى مأخوذة عن رسم على كأس هيلينية توجد ضمن مجموعة پاسچيو بروما ، وهى تمثل إحدى المعارك الطاحنة التى طالما دارت رحاها بين شردمة من الهيلين والفرس أثناء هذه الحرب الضروس]

الحد اكتفت المدن الهيلينية بهذه النتيجة لأنها كانت قد تعبت من الجهاد ، وأعلنت أنها لا تود المساهمة فى القتال بعد ذلك إلا بما لها وعتادها ، فلم يَفُتَّ ذلك فى عضد أثينا ولم يثنها عن عزمها ، لأن انتصاراتها المتوالية قد وسعت نطاق مطامعها ، فصممت على أن تحمل الحرب إلى آسيا ، لتهاجم الفرس فى بلادهم ، وقد نفذت هذا التصميم ، فأبحر جيشها إلى بلاد فارس بقيادة « كيمون » بن « مِلْتِياد » بطل « ماراثون » فهاجمها وهزم جيوشها فى عقر دارهم هزيمة منكرة اضطرتهم إلى عقد معاهدة مهينة فى سنة ٤٤٩ ، اعترف فيها الفرس باستقلال جميع المدن الهيلينية الآسيوية ، وبأن بحر إيجة قد أصبح هيلينيا ، وبهذا صعدت أثينا إلى أعلى آواج المجد والجلال ، ودعيت منذ ذلك العهد باسم هازمة البربر ، ومحركة إفريقيا ، والقادرة على كل شئ ، فملأها ذلك حماسة وثقة بنفسها ، وإعجاباً بجيشها ، وحملها على مضاعفة أسطولها الحربى والتجارى حتى أصبح زمام الملاحة بين إفريقيا والأجانب بيدها .

عهد بيركليس « Périclès »

كان نظام الحكم فى أثينا إذ ذاك أى طوال القرن الخامس ديمقراطياً معتدلاً ، أى أن السيادة كانت للشعب ، ولكن المبادئ الخلقية السامية القديمة كانت موضع احترام

الرأى العام ، وكانت الفضيلة مستمتعة بالهيبة والجلال إذ أن روح المحافظة على التقاليد ، وروح التجديد كانتا تمتازان امتزاجاً سعيداً ينتظر منه خير الثمرات ، وكانت الوطنية فى أسنى درجاتها ، وكانت الحكمة والآداب والفنون متألثة أخاذة . ومن أبرز مميزات ذلك العصر تلك الشخصية القوية الفذة ، وهى شخصية بيركليس بن إكسندنيوس بطل ميكالا ، وهو أحد أفراد أسرة « ألكمينون » وقد ولد فى سنة ٤٩٤ ثم نشأ وترعرع فى بيت المجد والشرف .

ولما كانت السماء قد اختصته بنصيب عظيم من الذكاء من جهة ، وكانت المصادفات السعيدة قد ألقت بتقاليد تثقيفه إلى أيدي أرقى أساتذة العصر عقلية ، وأوسعهم علماً ، وأسماء خلقاً من جهة أخرى ، فقد لقنه أولئك الأساتذة أرقى أنواع الثقافة ، وأنقى ألوان المعرفة ، وإلى جانب ذلك قد أدبوه أحسن تأديب ، وهذبوه أكمل تهذيب ، وعلموه كيف يتمسك بشخصيته ، ويحتفظ بكرامته ، وكيف يستطيع أن يمتلك نفسه ، ويضبط عواطفه ، ويتخلص من سلطان الهوى ، ويتحرر من عبودية التأثير والانفعال . ومن آيات ذلك أن معاصريه قد اتفقوا على أنه لم يأت فى حياته عملاً واحداً ناشئاً عن حركة مفاجئة ، أو ناجماً عن انفعال مباغت . ولقد كان معتدلاً لا يسرف فى دعايته ، ولا ينثر وعوده وتمنياته هنا وهناك ، بل كان لا يظهر فى المجتمعات الشعبية إلا فى المناسبات الكبرى ، ولكنه إذا ظهر فيها قذفها بنوع خاص من الفصاحة لم يجد له القدماء نظيراً يشبهونه به إلا الصاعقة المتفجرة .

وإذ كان خطيباً من الطراز الأول فإنه كان يتجنب كل المظاهر العادية والإشارات المألوفة فى مواقف الخطابة ، وكان يلقي خطبه ارتجالاً ، وذراعه فى ثنايا معطفه لا يحركها ولا يبيديها للجماهير على نحو ما يفعل عامة الخطباء ، وكان يعرف كيف يؤثر فى سامعيه إلى حد السحر الذى ينتهى دائماً بحملهم على الاقتناع بكل ما يريد . ولقد صور لنا « توكيديدس » خصمه العنيف هذه الموهبة تصويراً دقيقاً فقال : « عند ما كنت أحمل عليه إلى الحد الذى

يهوى به إلى الحضيض ويحقق لى سيادة الموقف كان يرفع الصوت معلناً أنه لم ينهزم أبته ، ولا يلبث أن يقنع الجميع بهذه النتيجة «^(١) .

أما حياته الخاصة فقد كانت بسيطة متواضعة مفرطة في القناعة ، متذرة بالانزان ، وكانت نفسه الكبيرة آية من آيات الاعتدال لا تفويها أعراض الحياة ، ولا تشملها خمرة الظفر ، ولا يهرها ضوء التفوق . وكان أسمى من أن يغريه الثناء أو يثيره الهجاء . ولا جرم أن هذا المسلك الذى جمع العزة والكرامة إلى الحذر والاحتياط ، وذلك السلطان المعنوى القوى الذى ضربت العبقرية والفضيلة والبلاغة نطاقه حول اسمه وشخصيته قد أعداه أكرم وأنبل إعداد لأن يكون سيد أثينا بلا طغيان ، ورئيسها بلا دعاية ، وزعيمها بلا ملق ولا تمويه . (انظر الصورة رقم ٥ فى الصفحة التالية)

ولما بلغ منتصف الحلقة الرابعة تم له الاستيلاء على مقاليد الحكم فى أثينا ، فظل يديره أحكم إدارة زهاء ثلاثين سنة بفضل مواهبه وعلمه وفضائله ، ولقد كان أثره فى هذا العصر بارزاً إلى حد أن دعى باسم عصر « بيركليس » .

وفى الحق أن هذه الخمسين سنة التى فصلت بين الحرب الميدية فى إفريقيا ، والحرب
البيلوپونيسية كانت فى تاريخ أثينا حقبة لا نظير لها .

ولقد ظل هذا الحاكم المنقطع النظير محتفظاً بمكانته حتى انطفأ مصباح حياته فى سنة ٤٢٩ .

ومن مميزاته الأساسية أنه كان مثلاً من مثل الشجاعة فى جميع الحروب التى اندلع أوارها فى عصره ، وهى كثيرة متوالية . وكما تفوق فى الشجاعة والصلابة فى التمسك بحقوق بلاده ، كان كذلك نموذجاً من نماذج المهارة السياسية ، ولكن الذى سجل فيه الرقم القياسى هو أنه وضع نصب عينيه غاية واحدة جعل يهدف إليها طول حياته ويتخذ كل ما يمكن اتخاذه من الوسائل لتحقيقها ، وهى رفع أثينا إلى أسمى قمم القوة والمجد ، وتسجيل



[الصورة رقم ٥ مأخوذة عن تمثال نصفي أثري لـ « بيركليس » يوجد في متحف القاتنيكان بروما ، وعلى ملامح هذا التمثال المتقن تبدو جلياً الحكمة العميقة ، والعقل المتبصر ، والإرادة الحازمة ، والنبيل السلمي ، والخيرية الكاملة ، وما إلى ذلك من محامد بيركليس الكثيرة التي فرضت هيئته على الجميع دون أن يتطلبها] .

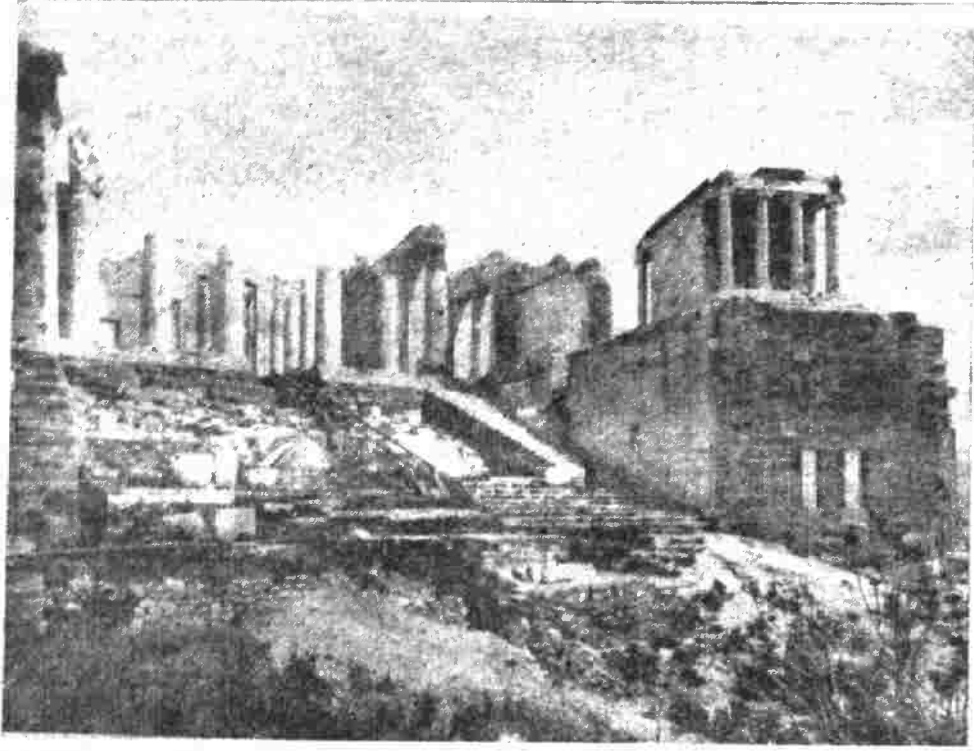
اسمها في صفحات الخلود . وقد نجح في مهمته نجاحاً موفوراً ، إذ تمكن من أن يجعلها عاصمة العالم المتمدين في ذلك الحين . فبذل مجهوداً في تشجيع النهضة الفكرية ، والعمل على إنضاج العقليات الممتازة في الفلسفة والأدب والفن . وإذا كنا قد ألمعنا إلى نتائج الجانب الفكري البحت ، فقد بقي أن نشير هنا إلى الفن فنسجل أن هذا الزعيم العظيم قد أفعم أثينا بالآثار الفنية التي ضمنت له ولها خلود المجد أو مجد الخلود .

ومن أشهر هذه الآثار العملاقية معبد « الپرثينون » « Parthénon » الذي أمر بتشييده للإلهة أثينية فوق تل الأكروبوليس .



[الصورة رقم ٦ مأخوذة مباشرة عن أطلال الپرثينون معبد أثينية إلهة الحكمة ، وهو مبنى كله من الرخام الخالص ، وقد اشترك في (تصميمه) المهندسان الشهيران : اكتينوس وكالكراتيس ، ويعتبر آية من آيات الفن الدياني ، وطوله سبعون متراً ، وعرضه اثنان وثلاثون متراً ، وارتفاعه اثنان وعشرون متراً ، وهو - رغم تهديمه - لا يزال يحدث انفعالا عظيماً في نفس كل من يراه .]

وكذلك معبد أثينيه نيكيه ، أى أثينيه المنتصرة ، وأعمدة بروپيليه الجميلة الساحرة
« Propylées »



[الصورة رقم ٧ مأخوذة بطريقة مباشرة عن أطلال تلك الواجهة الجميلة ذات الأعمدة الخالدة من
الأكروبوليس ، وترى فيها هذه الواجهة التى هى نموذج ساحر من نماذج فن العمارة الدريانية ،
وقد وضع تصميمها المهندس الهيلينى مينيسكليس ، كما يرى فى هذه الصورة بقايا أطلال معبد
أثينيه المنتصرة] .

وكما ساعد تشجيع هذا الحاكم الجليل على نبوغ عدد كبير من المفكرين والفلاسفة
والشعراء والكتاب والمهندسين المعماريين ، ساهم كذلك فى العمل على تفوق عدد لا يستهان
به من المثاليين الذين وصلوا فى صناعة التماثيل إلى حد الإعجاز ، ومن أبرز هؤلاء الأفذاذ
الخالدين « فيدياس » « Phidias » الذى كان معاصروه يلقبونه بتمثال الآلهة ، والذى
صنع - من الذهب والعاج للإلهة أثينيه - ذلك التمثال المعجز الذى يحدثنا التاريخ أن
ما استعمل فيه من الذهب بلغ أكثر من ألف كيلو ، والذى رأينا فى الصورة رقم (١)
ما صنع من الرخام على غرارهِ . وكذلك هو الذى صنع فى معبد أولمبيا تمثال زوس من

الذهب والعاج أيضاً ، وهو يمثل ملك الآلهة جالسا ، وارتفاعه ثمانية عشر متراً ، وهو لا يقل شهرة وفتنة عن تمثال أثينيه .

على أن هذه الأعمال الجليلة التي قام بها بيركليس لتخليد مدينته لم تسلم من دس الحاسدين وحقد المبغضين فجعل أولئك وهؤلاء يتمتعون في المنتديات الشعبية خفية بأن صنع هذه التماثيل على هذا النحو من البذخ فيه إتلاف لمال الدولة ، وطفقوا يتعهدون هذه الفكرة بالإثماء حتى تجسمت ووصلت إلى مسمع بيركليس ، فدعا إلى عقد اجتماع عام ثم قام فيه خطيباً فقال : « أيها الأثينيون أنرون أننى أنفقت على هذه الآثار مالا طائلاً ؟ فأجابته الأصوات من كل مكان أن نعم ، فقال هذا حسن ، فلا أحتمل أنا وحدى هذه النفقات كلها ، ولكن العدالة في هذه الحالة تقضى بأن يسجل اسمى منفردا على هذه الآثار ، ولا أريد غير هذا الشرط ^(١) .

وإذ ذاك قهرت عاطفة الجسد إحساس الحسد والحقد والدس ، فهتف الجميع قائلين : كلا كلا ، إستمروا في تخليد المدينة دون أدنى اقتصاد ، ولدينا ما يتطلبه هذا الجسد العظيم ^(٢) . وهكذا سار بيركليس إلى الأمام في كل شيء لا يلوى على ما يحدثه مجده في نفوس الحاقدين من غيظ وحفيظة ، لأنه لا يحسب حساب نفسه ، ولا يأبه لشخصه ، وإنما هو يتخذ أثينا غايته العظمى التي لا يدع لشأن من شؤون الحياة غيرها في نفسه أدنى مكان ، ولهذا لم تكن الحقبة التي حكم فيها محصورة في نطاق الأمور العادية ، وإنما كانت حقبة ابتكار وإنشاء ، بل خلق وخصوصية زائدين على المؤلف . ومن آيات ذلك أن سطعت فيها كواكب : « أنكساغوراس ، وپروتاغوراس ، وسقراط ، وإسخيلوس ، وسوفوكليس ، وأوريبيديس ، وأرستوفانيس ، ولسياس ، وفدياس ، وأبولودوروس .

ومما يلفت النظر في هذا الشأن ما كان الجنس اللطيف يستمتع به في عهد بيركليس من حرية واستقلال ، فقد كانت السيدة تستطيع أن تخرج من منزلها متى شاءت وكيف

(١) كانت التقاليد المتبعة في أثينا في ذلك الحين أن ينقش على التماثيل اسم صانعه الفنان ، واسم من تولى الإنفاق عليه .

(٢) Durug, Mème Luire, P. 96. (٢)

شاءت ترافقها اثنتان أو أكثر من جواريهها وتذهب إلى الحفلات العامة كحفلات ذلفيه وأولمبيا ، وتقود مركبتها بنفسها على نحو ما تفعل سيدات القرن العشرين بسياراتهن .



[الصورة رقم ٨ للفنان الفرنسي نوتور ، وهي مأخوذة عن رسم على وعاء هيليني يوجد ببريتش مزيمو بانجلترا ، وهي تمثل سيدتين من أرستكراتيات أثينا تقودان مركبة من ذوات الجياد الأربعة] .

ولقد كانت المرأة في ذلك العهد تهتم بالفنون المختلفة فتساهم في الشعر والموسيقى والرسم والرياضة البدنية ، وكانت الغاية التي يرمى إليها المصلحون من تهذيب المرأة وتنقيتها هي رفع مستواها إلى مستوى الرجل كما يروى لنا فُلُوتَرُخُوس ، وكن يجتمعن في نواد خاصة يتبادلن القريض ، ويوقعن على القيثارة كما تظهرنا على ذلك عدة رسوم على أوعية هيلينية .

(أنظر الصورة رقم ٩ في الصفحة الآتية)

عهد التدهور السياسي

بيد أن أثينا السياسية - مع الأسف الشديد - قد انغمست في بحر التيه والكبرياء ، وجعلت تعامل حلفاءها القدماء معاملة الرعايا ، ونسيت أن ضعيفين يغلبان قوياً ، فشاكت

هذه المعاملة من جانبها المدن الهيلينية الأخرى فأخذت تتفاوض سرّاً مع إسبِرْتَا التي كان مجد أثينا وسطوعها في سماء الدنيا قد جرحا عزتها وألجأها إلى الانزواء في داخل حدودها ، فلما سُنحت لها فرصة هذا الغالب من جانب المدن الأخرى ضد حاضرة الحكمة والأدب لم تشأ



[الصورة رقم ٩ للفنان الفرنسي نوتور ، وهي مأخوذة عن رسم على وعاء كان موجوداً إلى عهد قريب بمتحف الإرميتاج بسنترسبرج ، وهي تمثل أحد الاجتماعات العامة التي كانت مألوفة لدى السيدات الأثينيات في ذلك الحين قصد المناقشات العلمية ، والمناظرات الأدبية] .

أن تهمل انتهازها ، بل بالعكس قد شجعت هذه الروح المتمردة ، وعملت على تأليف حلف قوى ضد أثينا ، كانت أولى نتائجه أن اندلع لهيب الحرب البيلوبونيسية التي دامت زهاء سبعة وعشرين عاماً تأرجحت أثناءها أثينا بين النصر والإخفاق ، وتناوبت عواصف الأمل واليأس ، ولكن السنين العشر الأخيرة كانت شؤماً عليها ، إذ فقدت فيها أسطولها ، ثم انتهت بفقد استقلالها وخضوعها للقائد الإسبِرْتِي « لِسْتَنْدروس » فأزال أسوارها وحظر عليها أن يكون لها أكثر من اثنتي عشرة سفينة ، ولم يكتف بهذا ، بل أهانها إهانة شديدة بتدخله في نظام حكمها الداخلي ، إذ فرض عليها في سنة ٤٠٤ حكومة الطغاة الثلاثين ،

ولكن هذه الحكومة لم تدم طويلاً ، إذ لم تلبث أن سقطت في سنة ٤٠٣ عند ما نهضت أثينا ونفضت عن نفسها غبار الهزيمة ، وجمعت شتاتها ، وأعادت الدستور القديم ، واسترجعت كثيراً من قوتها ومجدها التليدين ، ولكن روحها الأولى لم تعد كما كانت في عهد عظمها الغابرة ، بل إن نظرتها إلى الحياة قد تغيرت ، فالحمية القديمة قد فترت ، والتفاني في الصالح العام قد خفت صوته ، وجعل كل فرد يشتغل بمصلحته الشخصية ، والوطنية المحلصة قد أخذت تتلاشى من النفوس . وبالإجمال قد ظهرت عيوب الديمقراطية المتصلة ملكة الشره الأنانية بأجلى مظاهرها ، وجرف سيلها الطاغى المظهر الأخير من الفضائل ، ولم يعد باقياً من المبادئ الخلقية الأولى إلا مالا مندوحة عنه لسير الحياة العامة ، فانتشرت الرفهية ، وزاد الترف ، وساد الانغماس في الذات البدنية ، وسهل اقتحام حصون التقاليد التي كانت إلى ذلك العهد موضع احترام الجميع ، وحل التكلف والتعمل محل الصراحة والبساطة القديمتين ، وترك الوطنيون أنفسهم يمتزجون بالأجانب ، وينحلون شيئاً فشيئاً في كل فروع حياتهم الاجتماعية حتى لم يكذب ببق منهم شيء . يمكن أن يكون قد برئ من التأثير الأجنبي ، فتقزز ذور العقول الذكية ، والمواهب العالية ، والقلوب النبيلة من هذه الحالة الأسيفة ، واعتزلوا المانع العامة ، وجعلوا يشتغلون بالحسكة والعلم ، وينظرون إلى الشؤون السياسية والاجتماعية نظرة المتفرج الدقيق الذي يلاحظ على بعد دون أن يتدخل في الأمر تدخلاً عملياً .

وكما تغيرت الحياة الخلقية تغيرت أيضاً الحياة العقلية في جميع نواحيها ، فاختلفت الخيال الابتكاري الذي كان من خصائص العصور الماضية ، وتحولت المواهب عن الانشاء المثالي وعن التطلع إلى عالم المجردات وانصرفت العقول عن الفيزيائية المطلقة ، وجعلت النظرة العامة تتجه نحو الأرض وما عليها من واقعيات ، وأخذ الشعر يصور ما هو كائن بعد أن كان يرنو إلى ما يجب أن يكون ، وخضع الفن للمحسنة المحيطة بالفنان بعد أن كان يستمد نموذجاً في العصور السالفة من صور الأساطير الفاتنة ، ورسوم سكان الأولمبوس الساحرة التي تفوق الإنسانية وتعدو أمامها نحو المجهول الذي لا حد له ، وطفق التفكير يتجه صوب المشاهدة والتدليل الحسي ، فأصبحت الجماهير لا تتذوق إلا القصائد التي تصور العواطف العادية التي

تختلج قلوب أكثر الناس ، ولا تعجب الا بالتمثال الأرضي ، ولا تصفق إلا للخطيب الذي يستمد عناصر خطبته مما يحوطه من ظواهر وأحداث ، ولا تدعن الا للمفكر الواقعي . ولهذا كله كان شعراء هذا العصر وكتابه وفنانوه ومؤرخوه وفلاسفته يمثلونه تمثيلا صادقا ، لأنهم جميعا كانوا يزعمون أن عصرهم هو عصر الحقيقة الواقعية وأن رسالة كل منهم هي المساهمة في كشف هذه الحقيقة ، ولكن أكثر يتهم الغالبية رأيت أن وسيلة هذا الكشف هي التجربة والملاحظة ، ولم يشذعن هذه الكثرة إلا فئة قليلة على رأسها أفلاطون أيقنت بأن الحقيقة المرموقة هي في عالم المجردات السامى ، لا في المحسات الحائلة ، ولكن الذى لا ريب فيه هو أن أفلاطون مع شذوذه عن الجماعة في الوسيلة لم يختلف عنها في الغاية المنشودة وهى البحث عن الحقيقة . وبهذا يكون ملتما مع عصره في روحه الجوهرية ، شاذا عنه في الثانويات العارضة .

على أن افتتان هذا العصر بالبحث عن الحقيقة في شعره وفنه وتفكيره ، واقصاء الخيال البحث عن جميع فروع حياته ليس معناها أن الشعر الخيالى قد انمحي من النفوس ، كلا ، وإنما قد كبت فيها وظل رهين القلوب لا يغادر صفحاتها إلى صفحات السجلات ، وهو الذى كان يحمىها من جفاف الواقعية المغالية المحدقة بها ، ويمنح أساليب العصر ما فيها من رشاقة وانسجام .

اللهجة الأتيكية:

كان لأثينا كغيرها من المدن الهيلينية الأخرى لهجتها الخاصة بها ، وهى اللهجة الأتيكية وقد تمسكت بها منذ فجر نهضتها فجازت بها حدود التخاطب إلى دائرة التأليف ، وجعلت تدعو لها وتستخدم قوتها وسلطانها في نشرها وتعميمها حتى شملت إغريقيا كافة .

تقترب هذه اللهجة من اللهجة اليونانية بعض الشيء وإن كان بينهما فروق أساسية ، فهى مثلها رشيقة عذبة على السمع ، ولكنها تمتاز عنها بالقوة والصلابة ، لأن اللهجة اليونانية

رخوة . ولا جرم أن هذا الفرق هو وليد آثار الرفهنية في إينئيا الآسيوية وصعوبة العيش في أتيكا كما ألمعنا إلى ذلك في طليعة هذه المعجالة .

وكما امتازت الأتيكية عن اليُنَيانية بصلابتها هي تمتاز أيضا عن الدرايانية بخفتها ، لأن هذه الأخيرة - وإن كان لها رنين فخم - فيها شيء من الثقل الذي يكبد العقل ويشعره بالسآمة . وبهذا تكون اللهجة الأتيكية قد ظفرت بوداعة اليُنَيانية ورشاققتها وأضافت إليهما الصلابة ، وفازت من الدرايانية بالقوة وأضافت إليها الخفة ، فكانت كأنها انتقاء لأحسن ما في اللهجتين ، فإذا أضفنا إلى هذه الميزة العظيمة سلطان أثينا الأدبي ، ومجدها السياسي ، استطعنا أن نعمل سيادتها في بلاد الهيلين .

المنتجات الأدبية المختلفة في هذا العصر :

من كل ما أسلفناه في هذه الإطاعة يتبين أن تلك الحقبة لم تكن بسيطة أو سهلة الانحصار ، وإنما كانت معقدة متنوعة الجوانب والأنحاء ، وأن كل جانب من جوانبها مؤلف من عناصر مختلفة الأجناس والأنواع ، وأنها لكي تفحص فحصا دقيقا ، وتعرف معرفة ذات أثر فعال ينبغي الإلمام بأهم عناصرها الأولية ثم توزيعها إلى فصائل منظمة حسب خصائصها ومميزاتها ، وإليك البيان :

أوضحنا أكثر من مرة أن أثينا كانت - في القرنين الخامس والرابع - عاصمة الثقافة والعرفان وحاضرة الأدب والفن بلا معارض ولا منازع ، وأن الثمار الأساسية التي أنتجها الفكر الهيليني كله نشأت أو ترعرعت حتى نضجت في ربوعها ، وأن مبعث فخار هذين القرنين من شعر ونثر قد تكون بين جذرائها . أو سعى إلى حرمها المقدس ليثبت وجوده وصلاحيته للحياة .

ولما كانت غايتنا من هذا الجزء هي تعقب ثمار العصر الأثيني تلخيصا وتحليلا ونقدا في شيء من البيان فقد ينبغي لنا أن نلج - قبل الدخول في تفاصيل هذه الدراسة - إلى العناصر

الأولى لهذه الثمار لنلقى عليها شيئاً من الضوء يجعل دراستها من الأمور الميسورة فنقرر بدياً - فيما يتعلق بالشعر - أن المأساة قد بدأت منذ طلیعة القرن الخامس تتخلص من الديثيرمبوس وتقف على قدميها ، وتكوّن لها شخصية مستقلة تظل تنمو شيئاً فشيئاً حتى تسطع في سماء أثينا وتصبح زينة حفلاتها ، وحلية أعيادها ، ويستمر هذا السطوع حتى يشغل القرن الخامس كله :

وكما نشأت المأساة عن الديثيرمبوس كذلك تنشأ المهزلة من طقوس ديونيسوس ، وتأخذ في النمو إلى جانب المأساة حتى تصل إلى أسمى آواجها في الربع الأخير من القرن الخامس .

أما النثر الذي رأينا نشأته في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، فإنه يستمر في التقدم والارتقاء عن طريق الثمار الفلسفية التي تبلغ القمة ، والمنتجات التاريخية التي تتبوأ الذروة ومبدأ الخطابة التي ستعجب الفصاحة والبلاغة اللتين سنراها في أسمى درجات تلاّثهما في القرن الرابع في المؤلفات القانونية ، والمرافعات القضائية ، والحجج الجدلية ، والمباريات السياسية ، وهذا هو عين المنهج الذي سنسلكه في دراستنا هذه المنتجات ، أي أننا سنتتبع المآسى في نشأتها وشبابها ونضوجها ، فإذا انتهينا منها انتهجنا نفس الخطّة بإزاء المهازيل ، فإذا فرغنا من ذلك أتجهنا إلى النثر بقروعه المتباينة فحاولنا تجاهه هذه المحاولة ذاتها ممتلئى النفس بالأمل في أن يصحبنا التوفيق .